محمد علوي المالكي

المستشرقون بين الإنصاف والعصبيّة

١٤٠٢ ـ ١٩٨٢

مطابع سحر جدة
ت: ٦٣١٤٤٠٥
٦٣١٤١٤٩
٦٣١٤٥٣٣

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

أما بعد : فهذا بحث مختصر عن المستشرقين .

لم أقصد به استيعاب هذا الموضوع تاريخاً ودراسة ، وإنما أردت أن أبين حقيقة مهمة تتعلق بتقييم دراسات المستشرقين من حيث الإنصاف والعصبية ، ومدى تأثرهم بذلك ، واعتراف بعضهم بهذا ، وانتقاد بعضهم لبعض .

(وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) .

هذا ، وبالله التوفيق والهداية إلى أقوم طريق ؟

محمد علوي المالكي

Scanned by CamScanner
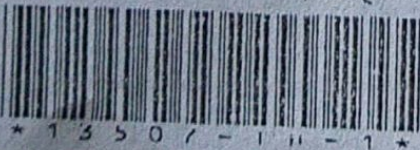
اهتم الفكر الإسلامى فى هذا القرن بالدراسات الاستشراقية فظهر لكثير من الباحثين والمفكرين المسلمين دراسات وكتابات متعددة ومختلفة عنهم بين المدح والذم ، والرد والترجمة ، ونحن لا يهمنا — الآن — تقييم ونقد هذه الكتابات — ولكن الذى أود الإشارة إليه هو — هذه الحركة البسيطة والبطيئة فى الوسط العلمى الإسلامى — هذه الحركة وإن جاءت متأخرة ، ومتأخرة جداً عن موعدها الذى كان يجب أن تظهر فيه ، إلا أنها تبشر بشىء — لا يدعو إلى الاطمئنان فحسب — ولكن يدعو إلى أن الأمل — فى إيقاظ الشعور الإسلامى وبعث النهضة الفكرية السليمة والرجوع إلى الثقافة الإسلامية الأصيلة المنبعثة من ذاتية الأمة ، والتحرر من التبعية الفكرية التى أذابت الشخصية المسلمة — سيعطى ثماره ونتائجه إذا اكتنفه العمل الجاد الصادق المخلص، وأن الرجاء فى ذلك ليس كاذبا إذا كانت هناك القيادة الأمينة التى تغار على الإسلام كما تغار على كرامتها السياسية .

وهذه الحركة الإسلامية — سواء تقدمت أو تأخرت — هى فى الحقيقة نتيجة طبيعية لاهتمام المستشرقين الكبير بالدراسات

الإسلامية ، فخدماتهم وجهودهم التى بذلوها – لا تنكر – وذلك واقع مشهود وظاهرة لاخلاف بين أهل الفكر فى ذلك ولاشك – نعم هناك مسائل هامة اختلفت فيها الآراء وتنوعت فيها المذاهب نظراً لاختلاف مقاصد المستشرقين من جانب ، واختلاف تأثر المفكرين بالمستشرقين من جانب آخر . فمنها مثلا تاريخ هذه الدراسات الاستشراقية وأنواعها والموضوعات التى تناولتها ، وأهم من ذلك كله القيمة العلمية الصحيحة لها ، وموقف المسلم منها .

أما عن تاريخ هذه الدراسات فإن القرن الثالث عشر الميلادى هو الزمن المشهود الذى قامت فيه حركة الاستشراق الواسعة ، وهو مبدأ تاريخ هذا الاتجاه الغربى الجديد بمعناه الشامل .

أنواع دراساتهم :

وأما أنواعها فإنه يمكن إرجاعها إلى نوعين :

الأول : خدمة التراث الإسلامى بالكشف والجمع والفهرسة والنشر والتحقيق والترجمة إلى مختلف اللغات .

الثانى : التصنيف والتأليف الاستقلالى . فى تاريخ هذا التراث ومنشئه وتطوره وموازنته بغيره .

وكان ميدان نشر هذين النوعين من الدراسات هو: المعاهد والمطابع والمجلات والمؤتمرات ودوائر المعارف وهذا الذى ذكرته يؤيده واقع دراساتهم وآثارهم، وأما الموضوعات التى تناولتها هذه الدراسات فإنها قد بدأت بدراسة اللغة العربية والإسلام، ثم توسعت إلى دراسة جميع ديانات الشرق وعاداته وجغرافيته وتقاليده وأشهر لغاته، ولكن أهم ما اعتنوا به هو الدراسات الخاصة بالإسلام والآداب العربية والحضارة الإسلامية، ولا زالوا يولونه من العناية والاهتمام حتى اليوم.

والمنهج العام الذى يسير عليه أغلبهم فى دراساتهم يتضمن عادة:

١ — فصلا مختصراً عن حياة الرسول صلى الله عليه وسلم.

٢ — « « عن العقيدة.

٣ — « « عن الشريعة.

٤ — « « عن الخلافة.

٥ — « « عن الفرق الإسلامية.

٦ — « « عن الحياة العقلية.

وهذه الخطة موجودة فى كثير من الكتب المؤلفة باللغة

الإنجليزية والفرنسية والألمانية ، كما تنطق بذلك المجلة الآسيوية ودائرة المعارف الإسلامية وغير هذين من الكتب المفردة[١] .

الظروف والملابسات المحيطة بدراسات المستشرقين :

وقبل أن ننتقل إلى تحليل القيمة العلمية لهذه الدراسات أحب أن أذكر لكم بعض الظروف والملابسات التى كانت مع قيامها وما كان يحمله العقل الأوروبى عن الإسلام والحضارة الإسلامية. وما انطوت عليه النفسية الأوروبية من انطباعات وتأثرات نحو الشرق عموما .

الأول : أن هؤلاء الباحثين الذين يتكلمون ويكتبون عن الإسلام — كدين يتبعه الملايين من البشر — هم لا يدينون به . وهذه الحقيقة لا شك فيها طبعاً . ولذلك ليس غريباً أن يدفعهم اختلاف الدين هذا إلى التعصب الشديد والحملة الشعواء على الإسلام وتحين الفرصة بعد الأخرى لبث الشبه والدعاوى بلا تثبت ولا تحقق . وقد أشار إليه (ليوبولد بايس — محمد أسد —) فى

(١) المستشرقون والإسلام للبان . والاستشراق للسباعى .

كتابه الإسلام على مفترق الطرق إذ قال[١]، لا تجد موقف الأوروبى موقف كره فى غير مبالاة فحسب، كما هى الحال فى موقفه من سائر الأديان والثقافات عدا الإسلام، بل هو كره عميق الجذور يقوم فى الأكثر على صدود من التعصب الشديد، وهذا الكره ليس عقلياً فقط، ولكنه يصطبغ بصبغة عاطفية.

وليس غريباً أن يدفعهم هذا الاختلاف أيضاً إلى الشعور بالعداء والبغضاء والحقد على الإسلام كدين فاتح زاحف حاكم وقد صرح بهذا المستشرق (بيكر) قال : إن هناك عداء من النصرانيين للإسلام بسبب أن الإسلام عندما انتشر فى العصور الوسطى أقام سداً منيعاً فى وجه الاستعمار وانتشار النصرانية، ثم امتد إلى البلاد التى كانت خاضعة لصولجانها ، وصرح بهذا كذلك الأستاذ (درمانجهايم) فقال : حينما اشتعلت الحرب بين الإسلام والمسيحيين ودامت عدة قرون اشتد النفور بين الفريقين وأساء كل منهما فهم الآخر، ولكن يجب الاعتراف بأن إساءة الفهم كانت من جانب الغربيين أكثر مما كانت من جانب الشرقيين[٢]

---

(١) الإسلام على مفترق الطرق لمحمد أسد .

(٢) المستشرقون والإسلام: زكريا هاشم . حياة محمد : لاميل درمانجهايم.

ويقول (جيب) ومن معه فى كتابهم — وجهة الإسلام أو مسير الإسلام — لقد حدث من قبل فى حياة محمد عليه السلام أن بدأت تتشابك سيوف المسلمين والمسيحيين، وظلت كذلك حتى هذا اليوم، ولهذا ظل العالم المسيحى — لا المسيحية — عدو الإسلام الألد[1].

وليس غريباً أن يدفعهم — هذا الاختلاف — إلى تصور نظريات فاسدة خاطئة عن النبى صلى الله عليه وسلم فى نبوته وعصمته، وعن القرآن كوحى معجز منزل من الله سبحانه وتعالى، فيتخطبون فى تفسير مظاهر الوحى التى كان يراها أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم، ويفسرونها بالصراع والتخيل، وبالمرض النفسى.

الثانى : أن الحملات الصليبية كان لها الدور الفعال فى تشويه وجه الإسلام الحقيقى، وإبراز صورة عنه ممسوخة ناقصة مختلفة حملتها إلى أوروبا وبثتها فى العقل الأوروبى — كما يقول محمد أسد — أن الشر الذى بعثه الصليبيون لم يقتصر على صليل السلاح، ولكن كان قبل كل شىء، وفى مقدمة كل شىء شراً ثقافياً — لقد نشأ

---

(١) وجهة الإسلام ص ١٨ تأليف جيب وجماعة من المستشرقين.

تسميم العقل الأوربى عما شوهته قادة الأوروبيين من تعاليم الإسلام ومثله العليا[١] .

الثالث : عدم تمييزهم المصادر الموثوق بها من غيرها فى نقولهم، إذ يعتبر المستشرقون أن دراسة الإسلام تؤخذ من القرآن والسنة وتفكير المسلمين فى مدارسهم المتنوعة ومذاهبهم المختلفة[٢] .

فالفقه الإسلامى، وآراء المتكلمين، ودواوين الأدب كالأغانى وكتب التاريخ كالطبرى، وأقوال العلماء أرباب المذاهب الأخرى كغلاة الصوفية ومتطرفى السلفية وغيرهم، كل هذه مصادر ومراجع تؤخذ منها الدراسات الإسلامية، ويعتمد عليها فى نقل النصوص والأخبار ، فمنطق اعتبارهم أن تفكير المسلمين ومذاهبهم تساوى فى الحجية : القرآن والسنة الصحيحة، وهذا التقدير لمصادر الإسلام جناية وجريمة فى حق هذه المصادر، فى الوقت الذى يعتبر المسلمون فيه أخبار القرآن يقينية الدلالة، مقطوعا بصحتها ، يجب أخذها.

---

(١) بتصرف واختصار من الفكر الإسلامى للدكتور البهى ٢١١، والإسلام على مفترق الطرق .

(٢) نفس المرجع ٢١٤ .

— وأخبار كتب الأدب ظنية لا يعتمد عليها — ويجب التوقف فيها — يعتبر المستشرقون أنهما فى درجة واحدة .

الرابع : أن الغرب كان يميل دائماً إلى رد أخطاء ومواطن الضعف عند المسلمين إلى تعاليم ونفوذ الإسلام ، بدلا من ردها إلى جهل المسلمين بالقيم الإسلامية وإهمالهم لها[١] .

وكأنهم يعتبرون المجتمع الإسلامى دليلا صادقا على الإسلام ، وأن المسلم فى كل عصر بانتسابه إلى الإسلام على أى وجه حجة على الإسلام ، وأن سلوكه فى حياته وتأديته لعبادته تمثل تعاليم الإسلام فى الأخلاق والعبادة .

ومعلوم أننا إذا جعلنا المجتمع الإسلامى مقياسا للإسلام كانت النتيجة سيئة ، لحالة المجتمع التى لا ترضى .

الخامس : فقدان عنصر الروحية الغيبية فى الطبيعة الأوروبية وخاصة فى العصور الحديثة ، بعد غلبة النظريات المادية والطريقة التجريبية على وجه أخص . ويظهر أثر فقدان هذا العنصر أمام

(١) مقدمة تفسير الإسلام لظفر الله خان لكتاب تفسير الإسلام للدكتور لورافاجليرى .

تفسير الحوادث التاريخية ومحاولة الاهتداء إلى الروابط الظاهرة والخفية التى تجمع بين أشتاتها، وتجعل منها وحدة متماسكة الحلقات متفاعلة الجزئيات ممتـدة مع الزمن والبيئة امتـداد الكائن الحى فى الزمان والمكان، فلا تكون هناك استجابة كاملة صادقة أمام هذه الحوادث وتفسيرها ودراستها، لأنه يفقـد عنصراً من عناصر إدراكها وفهمها على الوجه الكامل، ومن ثم يجعل تفسيراً لها مخطئاً أو ناقصاً.

وقد أشار سيد قطب إلى هذا فقال[1]: تتسم البحوث الغربية عن الموضوعات الإسلامية بظاهرة الاستجابة الناقصة، وكلما كانت هذه الموضوعات الإسلامية ذات صلة وثيقة بالفترة الأولى من حياة الإسلام كان نقص الاستجابة إليها أكبر فى العقلية الغربية الحديثة.

السادس: اهتمام الفاتيكان - أكبر المراكز الدينية وأكثرها اهتماما بالاستشراق ونشره، واهتمام رجال الدين الذين يؤلفون الطبقة الأكثر تنوراً فى أوربا.

---

(١) فى التاريخ: فكرة ومنهاج ٣٨.

اهتمام هؤلاء جميعاً بإرساء نهضة الكنيسة على أساس من التراث الإنسانى ، تمثل الثقافة العربية الإسلامية جزءاً أساسياً منه واهتمام الكنيسة بإعداد جماعة من المفكرين يستطيعون مقارعة فقهاء المسلمين ومناظرتهم ومجادلتهم، واهتمام الكنيسة أيضاً بأكبر واجب من واجباتها، وهو: الدعوة إلى المسيحية والتبشير بها بين المسلمين بأقرب وأسهل الطرق، ألا وهى الاستشراق، والذى يؤيد هذا الزعم هو: أن الكثيرين من الذين احترفوا الاستشراق وبرزوا فى ميادينه بدأوا حياتهم العلمية بدراسة اللاهوت قبل التفرغ لميدان الدراسات الاستشراقية[١] .

منصفون ومتعصبون :

فى وسط هذا الجو والفكرة والميدان المشوب بهذه الملابسات المختلفة: قامت هذه الدراسات عن الإسلام ، فهل سلمت من تأثير هذه العوامل المختلفة القوية الداخلية والخارجية ؟ لذلك تنبه كثير من المفكرين والكتاب المسلمين إلى هذه الحقيقة ، فكان من

---

(١) باختصار وتصرف من محاضرة نبيه عاقل : المستشرقون وبعض قضايا التاريخ .

نتائج هذه اليقظة أن قسموا المستشرقين إلى صنفين : متعصبين ومتجردين ، أو منصفين .

فالمتعصبون وهم — الغالبية — أكثرهم من الرهبان والقسس والمبشرين الذين اشتغلوا بالاستشراق .

والمنصفون هؤلاء — أقبلوا على الاستشراق — كما يقال عنهم — بدافع من حب الاطلاع على حضارات الأمم وأديانها وثقافتها ولغاتها ، وحاولوا بكل جهد أن يتحرروا فى بحوثهم العلمية من أثر العواطف الدينية .

انتقاد بعضهم بعضاً :

وهذه اليقظة الفكرية شعر بها أيضاً بعض علماء المستشرقين أنفسهم، وأحسوا بأن دراسات إخوانهم التى انبعثت من وسط ذلك الجو ، كانت متأثرة كل التأثر بما فيه، فظهرت منهم انحرافات علمية تدعو إلى الفضيحة وتجر إلى النقد ، يقول الكونت هنرى دى كاستر كاسترى أحد وزراء فرنسا وأحد حكام الجزائر أيام الاستعمار الفرنسى[1] : ليس محمد من المبتدعين ولا من المنتحلين، وليس هو نبى

(١) الإسلام : كاسترى ، ترجمة فتحى زغلول باشا ص ١٥ — الإسلام فى نظر الغرب ص ٢٩ .

سلاب كما يقول موسيو سايوس، ثم أخذ يرد على الموسيو كينان الذى زعم أن عمومية الدين ليست من طبيعته ، وإنما حصلت بعد تطور وتأثر بالزمن والأمم ، وقال : فلا يغضبن موسيو كينان إذا حذفت تقسيمه الإسلام إلى أول ولا حق، وقلت فيه كلمة كما قال فى كتابه : إنه دين عمومى .

ويقول الأستاذ (ديرمانجهايم) معلقا على نتائج الحروب التى قامت بين المسيحية والإسلام: وفى الواقع أنه على أثر تلك المعارك العقلية العنيفة التى أرهق فيها الجدليون البيزنطيون الإسلام بمساوىء واحتقارات دون أن يتعبوا أنفسهم فى دراسته، على أثر ذلك هب الكتاب والشعراء من الغربيين ، وأخذوا يهاجمون العرب ، فلم تكن مهاجمتهم إياها إلا تهماً باطلة ، بل متناقضة[1] .

وانتقد المستر — توماس كارليل — صاحب كتاب الأبطال وعبادة البطولة . الكاتب واشنجتون إيرفنج فى قوله — فى السيرة النبوية — إن الجبر بالسيف من قواعد العقيدة الإسلامية، ويقول

---

(١) حياة محمد — له — والمستشرقين لزكاريا .

إن اتهامه بالتعويل على السيف فى حمل الناس على الاستجابة لدعوته سخف غير مفهوم .

وقال أيضاً : لقد أصبح من أكبر العار على أى فرد متمدين من أبناء هذا العصر أن يصغى إلى تلك الاتهامات التى وجهت إلى الإسلام وإلى نبيه ، واجبنا أن نحارب ما يشاع من مثل هذه الأقوال السخيفة المخجلة .

ويقول الأستاذ (منتجمرى وات) جد الباحثون منذ القرن الثانى عشر فى تعديل الصورة المشوهة التى تولدت فى أوربا عن الإسلام، وعلى رغم الجهد العلمى الذى بذل فى هذا السبيل، فإن آثار هذا الموقف المجافى للحقيقة التى أحدثتها كتابات القرون المتوسطة فى أوربا لا زالت قائمة . فالبحوث والدراسات الموضوعية لم تقدر بعد على اجتنابها[1] .

ويقول الأستاذ (جيب) فى كلامه عن بحوث المستشرقين : لقد قامت فى صفوفهم فى السنوات الأخيرة محاولة إيجابية تحاول

---

(١) المستشرقون للبابى .

النفوذ بصدق وإخلاص إلى أعماق الفكر الدينى للمسلمين بدل السطحية الفاضحة التى اصطبغت بها دراساتهم السابقة[١].

ويقول الأستاذ (نورمان دانيل) على رغم المحاولات الجدية المخلصة التى بذلها بعض الباحثين فى العصور الحديثة للتحرر من المواقف التقليدية للكتاب المسيحيين من الإسلام، فإنهم لم يتمكنوا أن يتجردوا منها تجرداً تاما كما يتوهمون، وهؤلاء المستشرقون الذين أدركوا هذه اليقظة الفكرية كلها يعترفون بالانحراف العلمى الظاهر الذى وقع فيه كثير من زملائهم ومغالطاتهم السافرة، إلا أن بعضهم يصرح بالإنكار عليهم فى جرأة ووضوح، وبعضهم يحاول الاعتذار عنهم بقدر الإمكان، لأن ساحتهم فى الحقيقة واحدة.

وقد ذكر المرحوم الدكتور مصطفى السباعى أنه اجتمع بالبروفسور (روبنسون) فى انكلترا وبين له أخطاء (جولدزيهر) بالأدلة، فكان مما أجاب به: لاشك أن المستشرقين فى هذا العصر أكثر اطلاعا على المصادر الإسلامية من (جولدزيهر) نظرا لما طبع وعرف من مؤلفات إسلامية كانت غير معلومة فى عصره[٢].

---

(١) نفس المصدر (٢) الاستشراق والمستشرقون.

وتحديد موقف المستشرقين بهذا التصنيف[1] هو مذهب العقلاء من مفكرى المسلمين الذين يقدرون الأمور قدرها ويزنونها بميزان البصيرة، ويضعونها مواضعها.

ولم يصبح فى ميدان الفكر مجال أو قبول لأولئك المغرورين الذين أفرطوا فى خلع ثوب الثقة على هذه الدراسات عموما بدون تصنيف، وأسرفوا فى حسن الظن فنقلوا عنها ما نقلوه وكأنهم يروون عن مصدر متواتر محسوس، لا يتطرق إليه الشك أو الظن.

الواجب علينا :

بل إن الواجب علينا أن نذهب إلى أبعد من هذا، وذلك بأن نأخذ بالحذر والتحفظ والحيطة، حتى بالنسبة لهذه الآثار التى اشتهرت بالإنصاف والاعتدال، وأقول التى اشتهرت بالإنصاف، لأن التى عرفت بالتعصب والانحراف لم يصبح لها وزن حتى عند إخوانهم من المنصفين وما دام أن الدين الإسلامى قد وضع قواعد مضبوطة وموازين معلومة ومقاييس خاصة لقبول الأخبار ورواتها فى علم مصطلح الحديث الذى يعتبر أصح ما عرف من قواعد علمية

(١) السنة ومكانتها فى التشريع للسباعى.

للرواية والإخبار، بل إنه قد نهج على منهج علماء الحديث علماء السلف فى الميادين العلمية كالتاريخ والفقة والتفسير واللغة والأدب وغيرها، فكانت المؤلفات العلمية فى العصور الأولى مسندة بالسند المتصل جيلا بعد جيل، وهذه ميزة لا توجد فى مؤلفات العلماء من الأمم الأخرى، حتى ولا فى كتبهم المقدسة[١]. فلماذا لا نستفيد منها فى هذا الميدان؟

معايير النقد عند المسلمين :

لقد رسم العلماء فى هذا الفن معايير نقد الأخبار وطرقها ومقاييس قبولها، فاشترطوا فى طرقها — وهى التى يعبر عنها بالأسانيد — العدالة فى الراوى والضبط والحفظ والسماع المتصل بكل راو

واشترطوا فى الإخبار :

عدم ركة اللفظ والأسلوب بحيث لا يقوله بليغ .

عدم المخالفة لبدهيات العقول بحيث لا يمكن تأويله .

عدم المخالفة للقواعد العامة فى الحكم والأخلاق .

---

(١) السنة للسباعى .

عدم المخالفة لأصول العقيدة من صفات الله ورسوله .

عدم المخالفة للقرآن أو محكم السنة أو المجمع عليه أو المعلوم من الدين بالضرورة .

عدم المخالفة للحقائق التاريخية المعروفة عن عصر النبي صلى الله عليه وسلم .

ألا يكون داعياً إلى رذيلة تتبرأ منها الشرائع .

ألا يشتمل على سخافات يصان عنها العقلاء .

ألا يكون ناشئاً عن باعث نفسى(١) .

هذا هو المنهج السليم والطريق القويم لاعتبار الأخبار وهذه هى الأسس الرصينة المحكمة لنقدها وتميز صحيحها من سقيمها وهى أسس سليمة لا يستطيع المنصف أن يكابر فى قوتها وعمقها وكفايتها .

ومعاملة هذه الدراسات بمثل هذه المقاييس ، ووزنها بهذه المعايير والأسس ، باستثناء العدالة طبعا ، أولى ، بل واجب متمين والسبب فى ذلك أنه وإن كان السائد أن إقبال أصحابها على

---

(١) السنة للسباعى .

الاستشراق كان بدافع من حب الاطلاع والتجرد عن العواطف الدينية كما سبق — إلا أن حقيقة هذا الإنصاف وأسبابه الأصلية لم تتضح بعد، ولا زال عليها غشاء رقيق من الغموض والخفاء.

فهذا توماس كرلايل — وهو أحد المشهورين بالإنصاف والاتزان يلقى خطابه سنة ١٨٤٠ ويدعو بنى وطنه إلى أن يتركوا أسلوب محاربتهم للإسلام، وليبدأوا صفحة جديدة، وأن عليهم أن يتركوا طريق الأوهام والقصص الخرافية التى اشتهرت فى أوساط النصرانية حول شخصية محمد، وماقيل فيه من الأقاويل التى لا يقبلها الواقع والتاريخ، ويقول: ولنكن صرحاء فى اعترافنا بالواقع، ولنقل إن محمداً كان صادقاً فى قوله ومخلصاً فى دعوته، وإن الدين الذى دعا إليه دين على مستوى الأديان، لقد حاول سلفنا عبثاً أن يحيطوا شخصية محمد بإطار من التحقير، والإسلام بإطار من الخرافات والجهل، فالعلم متطور، وحب الاطلاع والمعرفة فى تقدم مستمر، وهذه القصص التى ألفناها عن الإسلام وعن محمد سوف لا تضر إلا بنا فلنغير اتجاهنا نحو الإسلام فإنه ينفعنا[1].

---

(١) الأبطال وعبادة الأبطال: ترجم عنه ص ٥٢.

نقطة التحول فى دراساتهم و وجوب الاحتياط :

هـذا الخطاب هو نقطة التحول فى أسلوب الاستشراق ولذلك يقول (منتجمرى وات) معلقاً على الخطـاب : إن رأيه بمثابة تحول فى تاريخ الباحثين .

إن رأى كارليل ليس اعترافا منه بالإسلام ، أو لخدمة الإسلام ولـكنه لما رأى بدء تغير الاتجاه فى العـالم الإسلامى أمام شدة الانحراف فى الدراسات الاستشراقية ، وعـلم أنه لابد من انجلاء الظلام وظهور الحقيقة أحب أن لا تفقد هـذه الدراسات الثقة والتقدير بين المسلمين، فجعل نقطة التحول والتغير من جانبهم وهو بذلك ينتقد بعض سلفه من الباحثين ليـكتسب كل التقدير والثقة من جميع الأوساط العلمية فيقول قائلا : هذا المنصف الذى يصدع بالحق ولو كان مراً ، أو على نفسه — والدليل على هذا أمران :

الأول : نفس كلامه فإنه تضمن فقرات لو تأملها الناظر وتفكر فيها بروية أدرك وراءها خـبراً لا يبعد أن يفسر بأن الأسلوب الاستشراقى القـديم فى تشويه الحقائق بتشويه صورة الإسلام ونبى الإسـلام وكتابه وتاريخه أصبح اليوم أسلوباً مكشوفا

لا جدوى فيه أمام تطور العلم وتفتح العالم ، وأن علينا أن نختار أسلوبا آخر ومنهجاً مخالفاً ، وطريقة مرضية فى الهجوم والتشويه بمدح الإسلام ونبيه ، وهى حقيقة صادقة عند الجميع ، ثم التركيز على الجزئيات والفروع والمسائل المتنوعة والقضايا المختلفة بما يحقق التركيز المطلوب .

وقد سار على هذا المسلك من نحا نحوه ودعا بدعوته من أمثال وات وكيش وسيترن ورينيه الذين بحثوا فى جذور العقائد والتقاليد فى العرب ، واهتموا بإبراز الخلافات بين الفرق الإسلامية واعتنوا بإظهار المتناقضات الموجودة فى المجتمعات الإسلامية ، وكبروا مشاجرات الصحابة والخلافات فى التفسير والآراء المتضاربة فى شخصيات الرواة للأحاديث انتهى .

يعنى (كما يقول الدكتور نبيه عاقل) إن أبحاثهم حول موضوع النهضة العربية الحديثة قليلة جداً ، وأقل منها أبحاثهم حول الجوانب الإيجابية فى تاريخ الإسلام ، وإن جل اهتمامهم تركز حول الفتن والحروب الأهلية والفرق الدينية ومظاهر الفرقة والانقسام التى تظهر سلبيات هذا التاريخ ، كما اهتموا بالأمور اللغوية وبالمؤثرات

الخارجية التى كان لها فى زعمهم تأثير فى نشأة الإسلام وحضارته، فهم يحاولون التشكيك فى صفاء الإسلام ويبرزون الدور الذى لعبته المسيحية واليهودية فى تكوين الفكر والعقيدة الإسلامية ويردون الفلسفة العربية الإسلامية إلى أصول يونانية أو غيرها وكل ذلك بدعوى استعمال الأسلوب العلمى فى البحث، واتباع الطريقة النقدية فى استقراء النصوص، وتطبيق قواعد منهج البحث التاريخى

وقد فطن إلى هذا المسلك الهجومى فى أشد العصور تعصباً وتعسفاً المستشرق الفرنسى غليوم بوستل GUILLJOME POSTEL الذى كان يعد من أكبر علماء عصره (١٥٠٥ — ١٥٨١) .

فألف كتابه «جمهورية الأتراك» وضمن القسم الأول منه وصفاً لحياة الرسول صلى الله عليه وسلم، مدعياً أنه استقاه من القرآن والحديث، مما جاء فى كتب المسلمين، لاعتقاده - كما يقول - بأن أحسن وسيلة لمحاربة المسلمين هى محاربتهم بأسلحتهم نفسها، ثم قام فى القسم الثانى من الكتاب بعرض حياة الرسول من وجهة النظر المسيحية، ولخص فى القسم الثالث تعاليم الدين الإسلامى، محاولا

بشكل خاص أن يشير إلى الأمور التى اقتبسها الإسلام عن المسيحية واليهودية[1].

وصرح بهذا أيضاً هولود وفيكو ماراتشى (١١٧٢ — ١٨٠٠) الذى كان يسمى بالمرعشى، وهو راهب سورى الأصل انتقل إلى المقر البابوى بإيطاليا واشتهر بالاسم الأول المحرف عن العربية - صرح بهذا - فى كتابه (دراسة عن الإسلام) فقال : لو أردت وصف حياة محمد حسب رواية كتابنا لتعرضت لسخرية المسلمين فإن هناك اختلافا كبيراً بين ما نتناقله نحن عن محمد، وبين ما يرويه المؤرخون المسلمون، حتى إن القارىء لا يكاد يصدق أن الكلام فى الحالتين يدور حول الشخص ذاته، لذلك سوف أتبع المؤرخين المسلمين. ليس لأنى أعتقد بصدق كل ما يقولونه، بل لأننا إذا أردنا مكافحة أعداء الدين لابد لنا أن نحاربهم بأسلحتهم، أضف إلى ذلك أن الكثيرين من كتابنا يذكرون أموراً عن محمد لا يمكن أن تثير لدى المسلمين إلا السخرية، ولا تزيدهم إلا تمسكا بعقائدهم الباطلة.

الثانى : أن كتابات كارليل المتعددة التى تتسم بالإنصاف

---

(١) محاضرات فى المستشرقين وبعض قضايا التاريخ.

والاتزان تحمل فى طياتها الشبه والنظريات الفاسدة الباطلة ، فهو هجوم فى صورة مسالمة ، وتعصب فى ثوب إنصاف .

(إن السم فى الدسم)

فهو عند ما يبدأ بحوثه يبدؤها بحملته على من سبقه من الدارسين — أسلافه — وأنهم ما أنصفوا ولا تحروا الصواب ، وغلبت عليهم العصبية والتأثر بالعواطف الدينية وما أشبه بهذا الكلام — يجعل القارىء يثق فيه كل الثقة ، ويعتقد كل الاعتقاد أن هذا الكاتب هو أبو الصواب الذى سيجعل الحق فى النصاب فيلقى بكل سلاح يصلح للمعارضة أو البحث والتشكيك، ويسلم له القياد ، ويكسب الكاتب حصول مثل هذه الاستجابة الكاملة وهو أكبر كسب، ثم بعد هذا يلقى ما يريد، فيقول : إن القرآن فى أولى سوره يوضح أن كل نبى أرسل إلى قومه فيقول (رسولا إلى فرعون) وقوم نوح ، ومثل هذا محمد .

إذا لم يكن بدعا من الرسل على حد تعبير القرآن ، فهل كان مرسلا إلى بنى نوع البشر ، لا بل إلى أهل مكة خاصة .

هـذا كلامه الذى جاء فى كتابه (قادة الأديان وأقوامهم) — طبع نيويورك ١٩١٩ لتوماس كارليل — ومعلوم أن كلامه هذا يخالف أعظم قواعد الدين وأصوله، ويناقض الفكر الإسلامى تماما، وهذا الأستاذ ونسنك (Wnsnk) أستاذ كرسى اللغة العربية بجامعة ليدن وصاحب الصيت البعيد والجهود العظيمة فى الإسلام والحديث مثل مفتاح كنوز السنة والمعجم المفهرس لألفاظ الحديث الذى جمع فيه الألفاظ الهامة للحديث من الكتب الستة ومسند أحمد وموطأ مالك وسنن الدارمى ورتبه على حروف المعجم[1] .

والذى نقل له الدكتور على عبد القادر فى كتابه (نظرة عامة فى تاريخ الفقه الإسلامى) (١/١٣) بحثا عن لدور الذى قام به أهل الحديث، ذكر فيه جهودهم فى دراسة الحديث ونقده، ورد على من زعم من المستشرقين أن الحديث من وضع أهلى القرنين الأول والثانى ، وأثبت فساد هذا الزعم[2] .

وهذا الموقف وبعض مواقف أخرى يتجلى فيها الإنصاف

---

(١) المستشرقون للعقيقى ج ٢ ص ٦٦٨ .

(٢) نظرة عامة للدكتور على عبد القادر .

نستحق التقدير قد أكسبته الشهرة بالإنصاف والاتزان عند كثير من الدارسين .

والحقيقة أنه لا يستحق التقدير فى كل مواقفه، وإن كان مشهورا — بالإنصاف والاتزان — إذ نرى له موقفاً غريباً يناقض تماما موقفه من الحديث إذ ادعى أن الرسول ألف القرآن من خلاصة الكتب الدينية والفلسفية التى سبقته، وعلى أثر إعلان هذا الرأى أخرج من المجمع اللغوى المصرى. ورأى الإسلام فى هذا معروف.

وهذه الدكتورة لورا فاجليرى الأستاذة بمعهد الدراسات الشرقية بميلانو التى قالوا عنها فى التعريف بكتابها تفسير الإسلام[1] الذى صدر لها عن سلسلة الثقافة الإسلامية بالقاهرة : إنها قد وضعت العدل والإنصاف نصب عينيها فى مناقشتها للقيم الإسلامية وكأنها عاشت مع الإسلام أمداً طويلا .

لقد ذكرت فى كتابها هذا أنه لا يمكن تجريد المسلمين من الروح الفدائية فى تحقيق غزواتهم، لأن ذلك من طبيعة البشر ص١٩.

وتقول عن الحديث: إن الأحاديث النبوية تعطى أجمل تعريف

---

(١) تفسير الإسلام (مترجم) للدكتوره فاجليري .

للشفقة والرحمة ، ولا يهم كثيراً أن بعض الأحاديث مشكوك فى صحته ، وأن بعضها ليس من كلام محمد ص ٤٧ .

ونسيت أن الأحاديث النبوية التى يعتمد عليها المسلمون هى أحاديث ثابتة . وأن العلماء المسلمين فحصوا الأحاديث وبينوا الغث منها من السمين .

ثم قالت: فماذا يهم إذن لو أثار أحد مسألة صحة نسبة الأحاديث للنبى ؟ إن العالم الإسلامى يقبل هــذه الأحاديث اليوم مسلماً بصحتها ص ٤٩ .

لكن فاتها أنه لا يقبل هــذه الأحاديث إلا بعد نقدها وسبرها وصحتها .

وتقول أيضاً : لم تضع الشريعة الإسلامية نظاما جنائياً جديداً ص ٦٣ وهذه صورة من انحرافات هذه الكاتبة المنصفة .

وهذا المستشرق مونتجمرى وات (Mongomry Wat) وهو من المشهورين بالإنصاف والاتزان . له كتابان خطيران جداً ، الأول (محمد فى مكة) والثانى (محمد فى المدينة) .

بدأ كما بدأ غيره بمدح الإسلام كمبدأ أو عقيدة ، وأنه دين عظيم مجيد ، وأن محمداً صادق شهم شجاع مخلص .

ثم بعد هذه الكلمات المعسولة يقول : إن حياة محمد فى مكة كانت حياة جد وكفاح ، وفى المدينة توسعت له الدنيا فرغب فيها وأنه وإن لم يكن يقصد الدنيا ، وإنما كان مخلصاً ، لكنه لما حصلت له الدنيا فتن بها .

فما أقبح هذه الفرية .

وهذا هنرى لامنس البلجيكى (Aenery Lamance) ١٨٦٢ — ١٩٣٧ صاحب كتاب سورية الذى ظهر من خلال هذا الكتاب محبا لسوريا حريصاً على سيادتها مؤمناً بالأمة السورية ، محاولا إثبات فكرة الكيان السورى ، وداعياً إلى ذلك ، بعد هذا كله لم يكن حبه المزعوم فى الحقيقة إلا انعكاساً لما كان يحمله من حقد وكراهية للعرب والإسلام . وأنه إنما اختبأ وراء — الحب — الذى بشرت به النصرانية لينفث سموم الحقد على الإسلام الذى كان يأكل قلبه .

وكان من رأيه أن سورية بعد أن حلت بها كارثة الإسلام عليها أن تتقبلها على مرارتها . وأن تحاول التقليل من ثقل وطأتها وأن تحافظ على شخصيتها المسيحية السابقة بالإبقاء على لبنان

كموطن مسيحى ، وكملجأ للمسيحية السورية التى نكبت بالتسلط الإسلامى، وينتهى به القول إلى أن الانتداب الفرنسى على سورية هو الوسيلة الرئيسية لإعادة الوحدة والسيادة إلى الأمة السورية.

هذا وقد ذكر فى كتابه قضايا تاريخية ومختلفة تتعلق بالنبى صلى الله عليه وسلم وتاريخ الإسلام والحديث النبوى فيها من التهم والانحرافات والشبه مالا يحصى ومالا يخفى على من يعرف أمثال هذا من المخرفين المحتالين الذين يكيدون للإسلام، والموقف ليس موقف رد أو جدال ، ولكنى أحببت أن أعرض نماذج فقط من آراء هؤلاء الذين اشتهروا بالإنصاف ، فاكتسبوا ثقة مطلقة .

موقفهم من السنة

أما موقف كثير من هؤلاء الباحثين من السنة النبوية ، فإن لهم فى ذلك نظرتين :

الأولى بالنسبة للحديث ، والثانية بالنسبة للرواة .

فأما نظرتهم للحديث ، فإنهم يشككون فى صحة الحديث النبوى الذى اعتمده علماؤنا المحققون ، ويتذرعون بما دخل عليه من وضع ودس ، متجاهلين تلك الجهود التى بذلها علماؤنا لتنقية

الحديث الصحيح من غيره ، مستندين إلى قواعد بالغة الدعوة فى التثبت والتحرى ، مما لم يعهد فى دنياتهم عشر معشاره ، ثم هم لا يفرقون بين كتابة الحديث وتدوين الحديث ، إذ يعتقدون أن الحديث لم يكتب إلا فى عهد عمر بن عبد العزيز ، وأن هذا يقدح فى الثقة بالأحاديث لأنها كتبت بعد عشرات السنين من عهد النبوة ، مع أن الحق أن الكتابة بدأت من عهد النبوة بأمر النبى صلى الله عليه وسلم .

والدليل على هذا قوله صلى الله عليه وسلم : اكتبوا لأبى شاه — وهو رجل من اليمن — طلب أن يكتب له ما سمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « قيدوا العلم بالكتابة » .

وقوله صلى الله عليه وسلم لعمرو بن العاص لما استأذنه فى الكتابة : « اكتب فوالذى نفسى بيده ما خرج منى إلا حق » .

أما الأحاديث التى تفيد النهى عن الكتابة ، فالصواب أنها منسوخة ، وأن ذلك كان فى صدر الإسلام خشية وقوع اللبس بين القرآن والحديث ، كما ثبت فى الحديث : « ومن كتب عنى غير

القرآن فليمحه» وكذا قوله صلى الله عليه وسلم : «امحضوا كتاب الله وأخلصوه» . رواه أحمد .

وقد فهم كثير من الصحابة رضى الله عنهم هذا الإذن الذى جاء بعد نهى ، فقيدوا كثيراً من السنن كما ثبت ذلك ونقل إلينا ومن ذلك صحيفة على رضى الله عنه ، وهى مشهورة : روى البخارى بسنده عن أبى جحيفة قال: «قلت لعلى: هل عندكم كتاب ؟ قال: لا ، إلا كتاب الله ، أو فهم أعطيه رجل مسلم ، أو ما فى هذه الصحيفة ، قلت فما فى هذه الصحيفة ؟ قال: العقل ، وفكاك الأسير ، ولا يقتل مسلم بكافر[١] » . وفى الروايات الأخرى لهذا الحديث زيادات عن بعض مسائل تضمنتها هذه الصحيفة[٢] .

١ — الصحيفة الصادقة لعبد الله بن عمرو بن العاص ، وذكر ابن الأثير أنها تضم ألف حديث[٣] وسماها هو بنفسه الصادقة .

٢ — صحيفة جابر بن عبد الله الأنصارى ، وهى التى يقول

---

(١) الصحيح: كتاب العلم — باب كتابة العلم ورواه مسلم أيضاً .

(٢) صحيح مسلم ٥٦ ، سنن النسائى ٨ : ١٨ ، مسند أحمد ١ : ١١٨ و ١٥٢ .

(٣) أسد الغابة ٣ : ٢٣٣ .

فيها قتادة بن دعامة السدوسى[1] : إنه يحفظها ويعتنى بها أكثر من غيرها .

وبهذا ظهر لنا أن بعض الصحابة كانوا قد كتبوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً كثيراً من أحاديثه ، بجانب ما أودعوه حوافظهم القوية وقرائحهم الصافية، وهكذا مَنْ بعدهم من التابعين إذ ورثوا علومهم ورووا عنهم ما حفظوه وكتبوه .

ثم لما انتشر الإسلام واتسعت البلاد ، وشاع الابتداع وتفرقت الصحابة بالأمصار، ومات كثير منهم فى الحروب وغيرها وكاد أن يقل الضبط وتضعف ملكة الحفظ ، دعت الحاجة إلى تدوين السنة كلها وكتابتها ، فكتب أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز — على رأس المائة الأولى — إلى عامله وقاضيه على المدينة أبى بكر ابن حزم : « انظر ما كان من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فاكتبه ، فإنى خفت دروس العلم وذهاب العلماء[2] » .

فكان هذا هو ابتداء التدوين العام فى هذه المرحلة ، وهو التدوين الرسمى الذى دعت إليه الحكومة الإسلامية آنذاك

---

(١) طبقات ابن سعد ٢ : ١٨٩ .　　(٢) جامع بيان العلم .

فى النصف الأول من القرن الهجرى الثانى ، وفيه نشطت حركة التصنيف والجمع والكتابة ، وشارك فى ذلك كثير من أئمة العلم وفحول الرواية .

وكان جوهر هذه الحركة هو حفظ السنة وبقاؤها صافية خالصة من عبث العابثين ودس المفسدين وتحريف الغالين وانتحال المبطلين ، وجهود علماء المسلمين فى هذا — قديماً وحديثاً — لها الفضل المشهور والسعى المشكور الذى لا ينسى « جهود متتابعة بحسب مناهجهم المختلفة » .

العناية بحفظ السنة المشرفة

وتختلف هذه المناهج باختلاف العصور والعهود ، لكن المادة الثابتة التى لم تتغير هى التثبت فى تلقى الأخبار .

ثم تطور هذا المنهج فى تلقى الأخبار لدرجة التفريق بين العدالة والضبط اعتبارهما شرطين لابد من حصولهما فى الراوى .

كما يستفاد ذلك من قول مالك رحمه الله : أدركت سبعين ممن يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لو أؤتمن واحد منهم

على بيت مال لكان أميناً ، لم آخذ عنهم، لأنهم لم يكونوا من أهل هذا الشأن » .

ثم تطور هذا المنهج تطوراً عظيما ، فكان من نتائجه .

أولا — معايير النقد للسند والمتن .

ثانياً — علم مصطلح الحديث .

ثالثاً — تدوين الصحيح .

رابعاً — كتب الكشف عن الرجال .

خامساً — كتب الكشف عن الموضوعات .

جهل المستشرقين الواضح :

وأكثر المستشرقين لا يفرقون بين التدوين العام، وبين كتابة الحديث ، وهذا الذى أوقعهم فى أخطاء جسيمة ، وأما نظرتهم لرواة الأحاديث، فهى نظرة حقد وهوى إذ كرسوا بحوثهم على بعض الأجلة من كبار الحفاظ وأئمة العدالة والضبط ، فشوهوا تاريخهم وألصقوا بهم ما ليس فيهم ، وأظهروا لهم صورة بشعة مختلقة كاذبة ، كأبى هريرة والزهرى وأبى حنيفة، وكنت أود أن أفصل الكلام فى هذا الجانب من البحث ، لكن لما رأيت أن

هذه المسألة قد أفردت بالبحث فى عدة رسائل خاصة بها وكتبت عنها أبواب ومباحث خاصة فى كتب عامة اكتفيت بما ذكرت .

وقد وفق الله بعض الأفاضل فكتب فى هـذا الميدان واستقصى فيما جمع ، وحرر ما كتب ، وانتصر فيما ابتغى ، وأجاد وأفاد ، ومنهم :

١ — المرحوم الأستاذ الشيخ مصطفى السباعى فى كتابه (السنة ومكانتها فى التشريع الإسلامى) .

٢ — المرحوم الشيخ محمد عبد الرزاق حمزة فى كتابه المسمى (ظلمات أبى ريه) الذى رد فيه على محمود أبى ريه صاحب كتاب أضواء على السنة ، المشحون بالأباطيل والأكاذيب .

٣ — المرحوم الشيخ عبد الرحمن بن يحيي المعلمى فى كتابه المسمى (الأنوار الكاشفة) الذى رد فيه على أبى ريه .

٤ — الأستاذ الشيخ محمد محمد السماحى فى كتابه (أبو هريرة فى الميزان) .

٥ — الأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة فى كتابه (الحديث والمحدثون) .

٦ - الأستاذ الشيخ محمد محمد أبو شهبة فى كتابه (دفاع عن السنة) .

٧ - الشيخ محمد عجاج الخطيب فى كتابه (السنة قبل التدوين وأبو هريرة راوية الإسلام) .

ولا ننسى الموقف المشكور للأستاذ « ونسنك » إذ تصدى للرد بنفسه على من زعم منهم ذلك الزعم ، وأثبت لهم فساده وجهلهم وسفه أحلامهم ، وبين لهم الدور الذى قام به أهل الحديث ، فذكر جهودهم فى دراسة الحديث ونقده ، وصدق نقلته الذين اكتملت فيهم شروط الرواية ، فأجاد فى ذلك وأفاد ، وصدق صلى الله عليه وسلم حيث قال : « إن الله لينصر هذا الدين بالرجل (الفاجر) الحديث .

بعد هذا العرض السريع الموجز يمكن أن أقول :

إن المستشرقين ينقسمون إلى قسمين :

١ - متعصبون ، وهؤلاء ليست لدراساتهم قيمة علمية صحيحة .

٢ - منصفون ، وهم ينقسمون أيضاً إلى قسمين :

الأول : جماعة اشتهروا بالإنصاف فى الأوساط العلمية

وأظهروا أنهم أقبلوا على الاستشراق بدافع من حب الاطلاع على حضارات الأمم وأديانها وثقافتها ولغاتها، وأنهم متحررون تماما فى بحوثهم العلمية من أثر العواطف الدينية ، فكتبوا عن الإسلام وأظهروه فى ثوب نظيف على جسد وسخ، فهم من منافق المستشرقين وقد تقدمت أمثلة ينطبق كثير منها على هذا النوع .

الثانى : جماعة لهم أهداف علمية خالصة لا يقصد منها إلا البحث والتمحيص ودراسة التراث العربى والإسلامى دراسة تجلو لهم بها بعض الحقائق الخافية عنهم، وهذا الصنف قليل عدده جداً، وهم مع إخلاصهم فى البحث والدراسة لا يسلمون من الأخطاء، والاستنتاجات البعيدة عن الحق، إما لجهلهم بأساليب اللغة العربية وإما لجهلهم بالأجواء التاريخية على حقيقتها، فيحبون أن يتصوروها كما يتصورون مجتمعاتهم، ناسين الفروق الطبيعية والنفسية والزمنية التى تفرق بين الأجواء التاريخية التى يدرسونها وبين الأجواء الحاضرة التى يعيشونها .

وهؤلاء سرعان ما يرجعون إلى الحق حين يتبين لهم، ولكنهم كثيراً ما يتهمهم غيرهم من المستشرقين بالانحراف العلمى أو الانسياق وراء العاطفة ، أو الرغبة فى مجاملة المسلمين ، والتقرب إليهم ، كما

فعلوا مع « توماس أرنولد »[١] حين أنصف المسلمين فى كتابه المشهور (الدعوة إلى الإسلام) فقد برهن على تسامح المسلمين فى جميع العصور مع مخالفيهم فى الدين ، على عكس مخالفيهم معهم : هذا الكتاب يعتبر من أدق وأوثق المراجع الحديثة فى تاريخ التسامح الدينى فى الإسلام ، يطعن فيه المستشرقون المتعصبون والمشهورون بالإنصاف ، وخاصة المبشرين بأن مؤلفه كان مندفعاً بعاطفة قوية من الحب والعطف على المسلمين،مع أنه لم يذكر فيه حادثة إلا أرجعها إلى مصدرها[٢] .

ومن هؤلاء من يؤدى بهم البحث الخالص بوجه الحق إلى اعتناق الإسلام والدفاع عنه فى أوساط أقوامهم الغربيين، كما فعل المستشرق الفرنسى الفنان — رينيه — الذى عاش فى الجزائر فأعجب بالإسلام ، وأعلن إسلامه وتسمى باسم ناصر الدين رينية وألف مع عالم جزائرى كتابا عن سيرة النبى صلى الله عليه وسلم وله كتاب «أشعة خاصة بنور الإسلام» بين فيه تحامل قومه على الإسلام ورسوله،وقد توفى هذا المستشرق فى فرنسا ونقل جثمانه

---

(١) الاستشراق للسباعى .

(٢) الاستشراق للسباعى .

إلى الجزائر ، ودفن فيها ، وكما فعل البرفسور — ليون الإنجليزى ورولف بارون اهراز النمساوى، والدكتور جيرمانوس المجرى أستاذ الدراسات الشرقية ، والدكتور ماركوس الألمانى ، والكولونيل دونالداس روكوبل الأمريكى والمستر دكتور فلما الهولندى والمستر زيجسكى البولندى وغيرهم[١].

أيها السادة : إن ما قام به هؤلاء الباحثون من جهود عظيمة للدراسات الإسلامية وإبراز التراث وإخراجه لا تنكر - كما قدمنا وإن محاولة الاستفادة من هذه الدراسات من الواجبات ، لكن الإفراط فى الثقة بهم والاعتماد عليهم والثناء المطلق على جهودهم من السخافات، بل ينبغى أن لا تحجب عنا - شهرة الإنصاف والاتزان — الحقيقة فنتلق عنهم كل ما كتبوه ، وفى كثير منه شبه وتهم وانحرافات على أنها حقائق علمية لا تقبل الجدل .

وينبغى أن نزن ذلك بميزان اعتبار الأخبار ، وتمحيص تلك الأقوال ، وبذل المحاولات لعرض هذه الدراسات على المصادر الأصلية .

---

(١) لماذا أسلمنا ؟ : لجماعة .

وينبغى أن تخصص وزارات التعليم فى كل بلد مسلم هيئة أو شعبة مكونة من علماء مخصصين فى فروع العلم والمعرفة الإسلامية والتاريخية واللغوية ، ومن علماء متخصصين فى معرفة اللغات المختلفة معرفة تامة، وفى معرفة الغرب ورجاله، ولهم عناية خاصة بالدراسات الاستشراقية ، ثم يجتمعون على ترجمة كتب المستشرقين الخاصة بالإسلام وتاريخه أولا ، ثم المتعلقة باللغة وآدابها والاجتماع ثانياً ، لترجمة كتب المستشرقين ، وبيان مافيها من حق أو باطل ، وبيان موقف الإنصاف من موقف الانحراف فى كل كتاب، ثم الرد على ما يستحق الرد من ذلك رداً علميا محكما متيناً ، ونشر ذلك كله باللغة العربية

ثم كتابة خلاصة أو دراسة عن الكتاب تتضمن بيانا لما فيه من انحراف وإنصاف، مع الرد والبيان، ونشر ذلك باللغات المختلفة.

وينبغى أيضاً أن تكوّن مثل هذه الهيئة وتشمل علماء متخصصين فى دراسة الأديان والفرق وتاريخها، خصوصاً التخصصات الجزئية فى الأديان الكبرى الأخرى ، بجانب المترجمين والعلماء المفكرين أصحاب العناية بالدراسات الإسلامية ، فيجتمعون على

دراسة تراث الغربيين وتقدما عندهم من دين وعلوم وحضارة ، وبيان مافى كتبهم من تحريف، وعلومهم الموروثة من دس، وبيان تاريخ حضارتهم ومقدساتهم وفاتحيها ورؤسائها وعلمائها، ونشر ذلك باللغة العربية وغيرها .

وحبذا لو يستفاد فى هـذا المجال من المستشرقين الذين هداهم الله إلى الإيمان ، فهم من خير أهل هذا الميدان .

وينبغى أيضاً أن نعيد كتابة كثير من المسائل الدينية والتاريخية على أسس جديدة ، وبمنهج آخر ، مع مراعاة أمرين :

(الأول) تهذيبها من الأقاويل التى هى محل نظر ، وتجريدها من الأخبار الإسرائيلية المنبثة فى كتب التفاسير ، والتى وجد فيها (الأعداء — مع أنه معروف لدينا ضعفها — عشا ففرخوا فيه).

(الثانى) أن تكون المصادر العربية — كما يقول سيد قطب — «فكرة ومنهاج» ص ٤٥ .

هى المرجع الأول والدراسات الغربية هى المرجع الثانى ، على أن ننتفع من هـذا المرجع الأخير بتحرير النصوص وتنسيقها وببعض الموازنات بين شتى الروايات من جهة السنن؛ ولا شىء بعد

ذلك أبداً، فبقية العمل يجب أن تكون ذاتية بحتة غير متأثرة إلا بمنطق الحوادث بعد أن يعيش الباحث بعقله وروحه وحسه فى جو الإسلام كعقيدة وفكرة ونظام .

ولعله قد انقضى ذلك العهد الذى كنا فيه نعتمد فى مصادر معرفتنا بعلومنا وتاريخنا على هذه الدراسات التى اعتمدت على كتبنا ومدوناتنا — لعله قد انقضى ذلك العهد الذى هو عهد خزى الجهالة بمصادرنا وعار الاتكال فى فهمها على فهم الغرباء على لغتنا وصحة الاعتقاد بديننا وعلمائنا .

ولعله قد جاء العهد الذى ننفض فيه الغبار عن كنوزنا العلمية الدفينة وننشرها محققة مصححة .

ولعله قد جاء العهد الذى تمتلىء فيه نفوسنا بالوعى الكريم والشعور باستقلال الشخصية ورفع راية الإنصاف والإخلاص للحق ودحض العصبية والهوى .

وبعد : فإن هذا لا يضع من قيمة هذه الدراسات أو ينتقص من مقام الأساتذة الباحثين المهتمين بها .

ولكنى أذكر إخواننا المسلمين بمناهجهم السليمة وطرقهم

المستقيمة التى يستعملونها فى وزن الأخبار وقبولها ليستعملوها فى وزن هذه الدراسات ونقدها ، ومع أننا نتمنى تغييراً آخر فى مقاصدها ، فإننا نقرر أن ذلك التغيير الكبير فى الدراسات الاستشراقية مهما كان الهدف الحقيقى منه ، هو فى مظهره مكسب للإسلام ويعطينا الأمل الكبير فى أن يكون هناك تغير آخر أكثر فعالية وأحسن مقصداً وأسلم نية ، وإذا حصل ذلك فلا أشك فى أنه يعطيهم أعظم الفائدة ويأخذ بأيديهم بالسعادة والهداية التى وصل إليها كثير من هؤلاء الباحثين كما قدمنا .

أيها السادة الأفاضل :

هذا غيض من فيض وذرة من عقد أسهمت فيها فى هذا المؤتمر الكبير وهى محاولة — عسى أن تكون صالحة فى معالجة هذا الموضوع الذى نال الكثير من البحث ويحتاج إلى الكثير من البحث أيضاً .

معترفا بأن ما تركته أعظم وأوسع مما كتبته ، لكن مالا يدرك كله لا يترك جله ، أسأل الله أن يوفقنا لصالح الأعمال ، وأن يهدينا إلى طريق الخير والرشاد ، وأن يبارك فى أعمال هذا الملتقى

وأن يجعل اجتماعنا هذا خالصاً لوجهه الكريم ، وأن يحفظ هذه البلاد وبلاد المسلمين من الفتن ، ما ظهر منها وما بطن ، وكل من أراد بالإسلام كيداً أو شراً أن يجعل كيده فى نحره ، وكل من أراد به خيراً أن يأخذ بيده ويرزقه بطانة تعينه على ما أراد من الخير ، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

« هذا وبالله التوفيق »